ماذا نريد من حماس؟

تمنّياتٌ ومخاوفُ بعد الزلزال الفلسطيني

. بسـام أبو غـزالة * .

فوزُ «حماس» وتراجعُ «فتح»

كَتب الكثيرون عن فوز حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الأرض المحتلة، فاعتبرته الكثرةُ منهم زلزالاً هزّ التوقّعات. وإنه لزلزالٌ حقّاً، ولكنّه كان متوقَّعًا أيضًا. ذلك أنّه «لا يصحّ إلاّ الصحيح،» حسب القاعدة العامة. والصحيحُ هنا ليس بالضرورة في فوز حركةٍ سياسيةٍ إسلاميةِ الفكر، بل في حتمية الانعتاق من حالة الفوضى والفسادِ والاستسلام للعدوّ التي اتّصفَ بها النظامُ الفتحاويُّ الأوسلوي.

في اعتقادنا أنّ حالة الفوضى والفسادِ والاستسلام للعدوّ كانت ذاتَ جذور في صلبِ حركةِ «فتح» منذ بداية انطلاقها فقد بدأتْ هذه الحركة عامَ ١٩٦٥، أيْ قبل عام ١٩٦٧، عامِ هزيمةِ حزيران واحتلالِ العدوّ الصهيوني لما تبقّى من أرض فلسطين بالإضافة إلى سيناء المصرية والجولان السورية. وكان دعاةُ «فتح» يومَ انطلاقتها يُبَشِّرون بفكرتيْن ويُضْمِرون ثالثةً:

ـ أولى هاتيْن الفكرتيْن أنّ الأنظمة العربية، وكان النظامُ الناصريُّ في مصرَ أقواها، قادرةٌ على تحرير فلسطين، ولكنّها لا تريد ذلك. فلا بدّ لنا (كما ظنّوا) من «توريطها» في حربٍ مع العدوّ الصهيوني لإجبارها على التحرّك لتحرير فلسطين.

ـ وثانيةُ هاتيْن الفكرتيْن أنّ جميعَ الفلسطينيين، من إسلاميين وقوميين وشيوعيين وغيرهم، إنِ اختلفوا في ما بينهم على الفكر والنهج، فإنّهم لا يختلفون على العمل لاسترداد فلسطين. فلماذا لا ينضمُّ جميعُ هؤلاء في حركةٍ همُّها الأولُ والأخيرُ تحريرُ فلسطين (أراضي ٤٨ طبعًا)؟

ـ أما الفكرة الثالثة المضمَرة، والتي ظهَرتْ أكثرَ جلاءً بعد عام ١٩٦٧، فهي أَقْلَمَةُ القضية الفلسطينية بالعيْبِ على العرب والابتعادِ عنهم لأنّهم أضاعوا فلسطين ومازالوا متخلِّين عنها؛ «فلا يحكُّ ظهرَكَ غيرُ ظفرِك،» و«يا وحدَنا!»...

لكنّنا، إذ نقرأ هذه الأفكارَ اليومَ، بعد نيِّفٍ وأربعين عامًا من انطلاق «فتح،» فإنّنا نراها بعينٍ أقدرَ على الإدراك، لأنّ بين أيدينا اليومَ تجاربَ من تصرفاتِ «فتح» على مدى هذه السنين جعلتْنا نميّزُ بين الغثِّ في دعوتها والسمين.

فأما فكرة أنّ الأنظمة العربية قادرةٌ على استرداد فلسطين ولكنّها لا تريد، فقد أظهرت الحقيقةُ فسادَ هذا الرأي. فلقد رأينا كيف أنّ حربَ حزيرانَ لم تحرّرْ فلسطين، بل أضاعت البقيةَ الباقيةَ منها لأنّ العربَ لم يكونوا حقيقةً مستعدّين لتلك الحرب.

وأما فكرة انضواء جميع المناضلين الفلسطينيين، بغضِّ النظر عن توجّههم الفكري، تحت راية العمل على استرداد فلسطين، فإنّها، بالرغم مما تنطوي عليه من سذاجةٍ، لقيتْ قبولاً قويّاً لدى الكثرة من الشباب وهذا ما ساعدَ «فتح» على الانتشار الواسع، وإنْ كان عَزّزَ هذا الانتشارَ ما توافَرَ لتلك الحركة من أموالٍ تُغْدقها عليها أنظمةٌ عربيةٌ معينة، وأخذتْ قيادتُها بدورها تُغْدقها على المريدين بما لا يتناسبُ والعملَ النضاليَّ المتقشّف. وكان ذلك أولَ بذور الفساد، ولعل الإفسادَ كان هو المقصودَ من سَيْل الأموال المتدفّق على «فتح.» فبدأْنا نرى «المناضلين» ينزلون أفخمَ الفنادق، ويَرْكبون السيارات المترفة، ولا يغادرُ أصابعَهم السيجارُ الذي يكفي ثمنُه عَوْلَ أسرة من أسر المخيمات يوميْن أو ثلاثة. فكان مثلاً على هؤلاء ذلك «الثوريُّ» الذي وَصَفَه مظفّر النّوّاب بقوله: «هذا الثوريُّ المتخمُ بالصدفِ البحريِّ ببيروتَ تكرَّش حتى عاد بلا رقبة!»

وأما أقلمة القضية فقد أخذتْ تتبدّى شيئًا فشيئًا في كثير من تصرفات «فتح.» وانساق وراء هذه الدعوة للأسف جمهورٌ فلسطينيٌّ عريض. حتى

* ـ كاتب فلسطيني مقيم في عمّان

تصويت الشعب لـ «حماس» تصويتٌ للمقاومة والاستقامة، ورفضٌ للفساد والفوضى

إنّ «حركة القوميين العرب» نفسَها اضطرّت أمام الضغط الشعبي إلى أن تنشئ فصيلاً فلسطينيّاً هو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ثم تلاشت تلك الحركة وحلّت الجبهةُ الشعبيةُ محلَّها. وينطبقُ القولُ عينُه على البعثيْن العراقيِّ والسوريِّ، إذ كان لكلّ منهما فصيلُه الفلسطيني.

مما سبقَ يجدُ المرءُ في ما آلت إليه أمورُ السلطة الفتحاوية نتيجةً منطقيةً للنهج الذي اتّبعته قيادةُ «فتح» منذ البداية. فهذا النهجُ ذو المواقفِ المتذبذبةِ ما كان له إلاّ أن يصلَ إلى هذه النتيجة المتمثّلة في الفساد المستشري، الذي يقتضي بالضرورة الفوضى فالفلتانَ الأمنيَّ ما دام السلاحُ متوافرًا للناس والحقّ أنّ الفسادَ، وما يتبعُهُ من فوضى وفلتان أمني في وطنٍ يحتاجُ إلى كلّ جهدٍ ليتحرَّرَ، إنما هو تواطؤ غيرُ مباشر مع العدوّ. وقد كانت أوسلو، أصلاً، شكلاً من أشكال هذا التواطؤ. ذلك أنّ قيادةَ «فتح» استشعرتْ أنّ البساط أخذ ينسحبُ من تحت رجليْها في مؤتمر مدريد (عام ١٩٩١) بانتخابِ وفدٍ فلسطينيٍّ من خارج منظمة التحرير للتفاوض مع العدوّ فقامت بالاتصال بالعدوّ مباشرةً حتى توصلتْ معه إلى اتفاق أوسلو، بعد أن أغرتْه بتنازلاتٍ وصفها شيمون بيريس بقوله: «كنّا نظنُّ أننا نفاوضُ أنفسنا!» وقد غدت تلك التنازلاتُ في سلطة الحكم الذاتي هاويةً بلا قعر، وغدا التفاوضُ العبثيُّ كعبةً يحجّ إليها المسؤولون، ولا يَخْجلون من التباكي للعالم إنْ «تقاعَسَ» العدوُّ الصهيوني عن التفاوض أو لم يلتزمْ بوعوده، والطفلُ الوليدُ يعلمُ يقينًا أنّه لن يلتزم. كلُّ هذا والشعبُ الفلسطينيُّ الرازحُ تحت نير الاحتلال والفقر يرى ويسمعُ ويتألم، والسلطويون في أبراجهم العاجية ـ بل في خدَر فسادهم ـ يظنّونه غبيّاً لا يدرك وهو حقيقةً متمسّكٌ بثوابته منذ النكبة الأولى؛ فإنْ خدَّرتْه أوسلو قليلاً، فلوهمِهِ أنّها ستخلّصه من الاحتلال. وحين لم تتحققْ آمالُه، عادَ إلى اقتناعِهِ بأنّ هذا العدوَّ لا تنفع معه سوى المقاومة. لذلك فإنّه في تصويته لحماس إنما صوّتَ من خلالها للمقاومة والاستقامة، رافضًا التواطؤَ مع العدوِّ والفسادَ والفوضى

التديّن في سياق الهزيمة العربية

يُمثِّلُ نجاحُ «حماس» في الأرض المحتلة بروزَ التيار الإسلامي في كلّ مكان، سواء في الوطن العربي أو في الدول الإسلامية. وإذ يصفُ الإسلاميون هذا البروزَ بـ «الصحوة الإسلامية،» فإنّ وراء ذلك عواملَ واضحة، نوردُ في ما هو آتٍ أهمَّها في الوطن العربي

أولاً، فَشلَ التيّاران القوميُّ واليساريُّ في تحقيق مطامح الأمة في الاستقلال والتوحّد ومواكبة التقانة الصناعية التي هي عمادُ الحضارة الحديثة. ولعلّ هزيمة حزيران كانت أسوأ نكسةٍ للتيار القومي، لِما عقدت الجماهيرُ العربيةُ عليه من أملٍ في الخلاص من السرطان الصهيوني الذي انغرز في خاصرة الأمة كذلك كانت الأمةُ تتوقع من دولتَي البعث في العراق وسورية أن تتوحّدا في دولة عربية كبرى تكونُ نواةً جاذبةً ينضمّ إليها مزيدٌ من الدول فإنْ لم يكنْ متوقَّعًا يومَها أنْ ينضمَّ نظامُ عبد الكريم قاسم في العراق إلى وحدة مصر وسورية، فكيف للمواطن العربي أن يفهمَ عزوفَ بعثَي العراق وسورية عن التوحّد وهما يَحْملان رايةَ الوحدةِ العربية؟ هل كان ذلك انعكاسًا لغيابِ مشروعٍ قوميٍّ عربيٍّ واضح المعالم لدى القوى الشعبية المنظّمة، أمْ لغيابِ أناسٍ قادرين على ترجمة الفكر النظريِّ إلى عملٍ، اتّباعًا للقول القديم: «إنما الفرسُ مِنْ فارسها»؟ إنّه سؤال يستحقُّ الدراسة أمام إصرار الإسلاميين على أنّ فكرَهم أوضحُ مَعْلمًا من الفكر القومي، ولا ندري يومَ يتبوّأون الحُكمَ إنْ كان فرسانُهم أقدرَ على تطويع تلك الفرس الجموح.

ثانيًا، كان لانهيار المنظومةِ الشيوعية أثرٌ كبيرٌ في ضعفِ التيار القومي واليساري الذي كان يعتمدُ على الاتحاد السوفييتي في دعم قضاياه دوليّاً فرأى الشعبُ أن يُجرِّبَ الإسلاميين في

. بســـــام أبـو غـــــزالـة .

نرجو من قادة حماس ألاّ يقترفوا خطيئة الاعتراف بدولة الاغتصاب الصهيوني

ما يَدْعون إليه، إذ لم يعدْ له أملٌ في غيرهم ولعلّ العودة العفوية إلى الإسلام بدأ يَظْهرُ بعيْد هزيمة حزيران ١٩٦٧ والتديّنُ ظاهرة نفسية طبيعية لمن يجدُ الدنيا مغلقةً أمامه، فيلجأ إلى ربّه ليفتحَ له أبوابَ الفرج. ومن الطبيعي أن تكون حالةُ التدين عند عامة الناس داعمًا رئيسًا للإسلام السياسيِّ الذي يدعو في جوهره إلى أنّ الإسلام هو الحلُّ في تفريج الكربِ السياسي، كما هو الحلُّ في تفريج الكربِ الشخصي وقد عزز نجاحُ الثورة الإسلامية في إيران هذا التوجُّه، فرأى العربُ (وغيرُهم) أنّ قيامَ دولةٍ إسلاميةٍ ليس ممكنًا وحسب، بل إن تلك الدولة بدأتْ بمناكفة الدولتيْن الأكثر عداءً للعرب والمسلمين، أعني الولاياتِ المتحدةَ ودولةَ الاغتصاب الصهيوني ورأوْا أن أوّلَ عمل قامت به تلك الثورة هو إغلاقُ السفارة الصهيونية في طهران وتسليمُها لمنظمة التحرير الفلسطينية لتقيمَ عليها سفارةً لها ثمّ رأى العربُ كيف أنّ حزبَ الله في لبنان حَقّقَ ما لم تستطعْه الدولُ العربيةُ مجتمعةً يومَ أَجبرَ الاحتلالَ الصهيونيَّ على انسحابٍ ذليل. ثم اضطرَّ هذا الاحتلالُ إلى أن ينسحبَ أيضًا من قطاع غزة تحت ضربات المقاومة، وما كان ليفعلَ بالتفاوض العبثيِّ الذي أدمنتْه سلطةُ «فتح.» ولنكنْ صريحين، فنقول، وبغضِّ النظر عن الأسباب المادية، إنّ أقوى أجنحة المقاومة في فلسطين هو الجناحُ الإسلاميُّ المتمثّلُ في حماس والجهادِ الإسلامي أما المقاومة القومية اليسارية، متمثّلةً بصورة خاصة في الجبهة الشعبية، وبغضِّ النظر أيضًا عن الأسباب المادية، فهي مقاومةٌ مُقعَدة. أقولُ هذا وأنا أقربُ إلى هذه الجبهة من غيرها.

مخاوف وتمنّيات

قد لا تُحسَدُ حماسُ على فوزها الساحق هذا. ومردّ ذلك إلى أنّها قامت بعمل لا يستطيع المرءُ تصوُّرَ صحته من خطإه، ألاَ وهو الاشتراكُ في انتخاباتٍ تحت سلطة الاحتلال. فالسلطة التي فازت بها هي حقيقةً في قبضة العدوِّ الصهيوني. صحيحٌ أنها كانت أيامَ «فتح» في قبضة هذا العدوِّ أيضًا، لكنّ مسؤولي «فتح» في السلطة لم يكن يهمُّهم الأمرُ ما داموا يَرْتعون بفسادهم. كانوا يسمُّونها «سلطةً وطنيةً» رغم أنّ اتفاقَ أوسلو الذي وَقّعوا عليه يُسمِّيها «سلطةَ حكم ذاتي» ـ وإنّها لكذلك حقّاً وما نالته حماسُ بفوزها ليس إلا حكمًا ذاتيّاً، أيْ تسييرَ أمور المواطنين الحياتية تحت الاحتلال بما لا يتعارضُ وسياسةَ الاحتلال

ولكنْ إذا كانت «فتح» بهذا راضيةً مَرْضيّة، فهل ستكون كمِثْلِها حماس؟ من المفروض أن يكونَ الجوابُ نفيًا. ولكنْ كيف؟ إنْ قلنا إنّ «السلطة» إنما هي مسؤولةٌ عن شؤون البلديات، فإنّ هناك مجالسَ بلدياتٍ انتُخِبتْ حديثًا لا تحتاجُ إلى السلطة في أكثرَ من الدعم المالي، بل إنّ بعضَ البلديات الميسورة لن تحتاجَ حتى إلى هذا المال قد تكون المحاكمُ والشرطةُ الحاميةُ لها والمنفّذةُ لأحكامِها هي ما تستطيع السلطةُ ممارستَه بما يريده المواطنون؛ ذلك لأنّ المحاكمَ قبل مجيء السلطة كانت مهمَلةً غيرَ فعّالة، وكان القضاءُ أثناء سلطة «فتح» عرضةً لتدخّل المسؤولين السافر. أما الخدمات الأخرى التي تقدِّمُها الحكوماتُ عامةً لمواطنيها، فهي من واجبِ الاحتلال أصلاً وكنّا نَعيبُ على سلطة أوسلو أنّها مَنَحت العدوَّ هديةَ تخليصِه من واجبه الذي تَفْرضُه الأعرافُ الدوليةُ في تقديم الخدمات للشعب المحتلّ، مقابلَ فوز أرباب تلك السلطة بالحكم وتسميةِ أنفسهم وزراءَ ومسؤولين مهمِّين. فلماذا تقبلُ حماسُ بهذا، وميزةُ قيادتها تواضعُ المؤمنين؟

أمرٌ جميلٌ أنّ مسؤولي حماس ما زالوا حتى اليوم متمسكين بخيار المقاومة وبعدم الاعتراف بدولة الاغتصاب الصهيوني فهل يُضطرُّون يومًا إلى تغيير ثوابتهم انحناءً لضغط العالم المنحاز أبدًا للعدو؟ نرجو، بل يجبُ عليهم، ألاّ يقترفوا هذه الخطيئة وأن

المقاومة هي الواقعية، وكلُّ وصفٍ آخر ترويرٌ حتى لو هلّلتْ له كلُّ الانظمة العربية

يتذكَّروا دومًا أنّ الشعبَ انتخبهم لأنّه بهم انتخبَ المقاومةَ ورفضَ الاستسلام للواقعية الكاذبة. فالمقاومة، أي العمل على استرداد حقنا في كامل ترابِ وطننا، هي الواقعية؛ وكلُّ وصفٍ لها مخالفٍ لهذا إنما هو تزويرٌ حتى لو هلّلتْ له الأنظمةُ العربيةُ كلُّها.

سمعنا تصريحاتٍ من بعض مسؤولين في حماس بأنّها لن تعترفَ بالدولة الصهيونية حتى تنسحبَ من الأراضي المحتلة عامَ ١٩٦٧ إذا كان هذا ضربًا من مناورةٍ سياسيةٍ لإحراج تلك الدولة لأنّها تَرْفضُ الانسحابَ الكليَّ أصلاً، فلا بأس لكنَّ علينا البحثَ عن **ضمانةٍ** لذلك، إذ إنَّ ما تختزنه الذاكرةُ من مآسيَ عبر زهاءِ تسعين عامًا يَجْعلُ الظنَّ من بعض الفطن. ذلك أنّنا لا نريدُ أن نتأخرَ خطوتين إلى الوراء كلّما تقدَّمْنا خطوةً واحدةً إلى الأمام. أما مستنقعُ التفاوض العبثيِّ الذي ارتضتْه «فتح،» فلا نظنُّ حماسَ من الغباءِ بحيث تُوقِعُ نفسَها فيه نعم، سوف تجدُ نفسَها مضطرةً إلى التفاوض مع العدو؛ فالتفاوضُ بحدِّ ذاته ليس عيبًا. لكنّ العيبَ هو في تقديم التنازلاتِ المجّانيةِ والتعدّي على الخطوط الحمراء.

هناك نقطة لا بد من ذكرها، وهي تخوُّفُ الكثيرين من أنْ يلغي الإسلاميون الديموقراطية حين يَحْكمون، باعتبارِ أنّ الحاكميَّة لله، وأنهم هم وحدهم القيِّمون على شريعته لكنّ مسؤولي حماس أكّدوا، في غير مناسبة، أنّهم جاءوا بالديموقراطية وسوف يحترمونها على أساس أنْ لا إكراهَ في الدين وإنّه لقولٌ جميلٌ، ولكنّنا ننتظر الفعل ولسوف تَفْشلُ حماسُ وغيرُها إنْ هي ضَيّقتْ أفقَها فحفلتْ بالتُّرّهات والصغائر، كالحجابِ والنقابِ وغيرِ ذلك؛ ذلك لأنّ مثلَ هذا سوف يَصْرفُ أنظارَها عن القضايا الكبيرة ـ وما أكثرَها وأخطرَها لدى الفلسطينيين!

فلسطين والعروبة والإسلام

في ختام موضوعنا لا بدّ لنا من التوكيد أنّ على الإسلاميين جميعًا ألاّ يظنّوا يومًا أنّ العروبة نقيضُ الإسلام. فممّا هو ثابتٌ أنّ الإسلامَ لا يقوى بغيرِ العربِ الذين هم لُحْمتُه، وأنّ العربَ ما كان لهم أن يَبْلغوا ما بلغوا من حضارةٍ وعراقةٍ بغير الإسلام. إنّه حضارتُهم جميعًا، يستوي في ذلك مسلموهم ومسيحيوهم

لكنّ بعض الإسلاميين في معرض تحقيرهم للعروبة يوردون حديثًا منسوبًا إلى الرسول الكريم أَنِ «اتركوها فهي منتنة » غير أنّهم في هذا يَحِيدون عن جادّةِ الصواب قطعًا، لأنّ المقصودَ في هذا الحديث هو العصبيةُ القبليةُ لا العروبةُ. فالعروبة للعربي حقيقةٌ واقعةٌ، كحقيقة انتسابِ إنسانٍ لأبيه فلان وأمّه فلانة. ولا يعني الانتماءُ العربيُّ تعصّبَ العرب ضدّ العجم. فكما أنّ الإيرانيَّ المسلمَ إيرانيٌّ، والباكستانيَّ المسلمَ باكستانيّ، فالعربيُّ المسلمُ عربيّ وإذا كان الإسلاميون يتطلّعون إلى إقامة دولة إسلامية واحدة، فلا بأس إن استطاعوا لكنّ عليهم أنْ يدركوا أنّ مثلَ هذه الدولةِ لن تقومَ قبل قيام الدولة العربية الواحدة فكيف للعراق وإيرانَ أن يتوحّدا قبل أن يتوحّد العراقُ وسوريةُ، مثلاً؟

وفي الجانبِ الآخر كذلك، نتوقّعُ من «حماس» أن تَنْبذ الإقليميةَ الفلسطينيةَ التي ابتدعتْها «فتح» لغايةٍ ما. نَفْهمُ التركيزَ على توكيد فلسطينية القضية في معرض مواجهة محاولة الصهيونية طمسَ اسم فلسطين ووجودِ الشعب العربي الفلسطيني، لكنّ هذه المحاولة لم تعدْ مجديةً أمام صمود الشعب العربي الفلسطيني. ثم إنّ توكيد فلسطينية القضية لا يكون ذا جدوى إلاّ بتوكيد **عروبة** القضية. ذلك لأنّ فلسطينَ جزءٌ لا يتجزأ من الوطن العربي، واستردادُ كامل الترابِ الفلسطينيِّ واجبٌ عربي، وما شعبُ فلسطينَ إلا ذلك الجزءُ من الأمة العربية الذي يقفُ في خطِّ الدفاع الأول عنها

عمّان